فضيلة الإحسان

للاستاذ أبو بكر ذكرى ـ أستاذ الاخلاق بكلية أصول الدين

يقول أحد الحكماء : لولا الفضيلة لكانت الحياة مزرعة من الأشجار الشائكة لا ثمرة ترجى منها ولا مكان تحتها لمستظل . وقال آخر : لولا ظلال من الفضيلة تظل الأرض لكان بطنها خيرا من ظهرها اذ لن يكون على ظهرها سوى الجحيم بعينه . وحقا قالا وصدقا وبرا .

واذا كانت الفضائل فى جملتها هى زينة الحياة وأنسها وأمنها وسعادتها فان لفضيلة الاحسان من بينها شأن وأى شأن !

وكلمة « الاحسان » لها فى لغتنا معان مختلفة : فقد يراد منها الاجادة فى العمل وفى الصنائع والحرف ونحوها . يقال : فلان يحسن كذا من الأعمال ، وكذا من الصنائع وكذا من الفنون .. وقد تطلق الكلمة على بسط اليد بالبر والمعروف لمن هو فى حاجة اليه . وقد تطلق على مساعدة الفقير والمسكين . والمعنى الأول وهو الاجادة فى الأعمال قد لا يكون من الأخلاق فى شىء . فكم من نابغة فى عمله وهو من شر الخلائق وأكثرهم أذى للخلق . واذن ، فليس مما نقصده هنا بكلمة « الاحسان » .. انما نريد من الاحسان المعانى الأخرى ، اذ هى الجديرة بأن تعد من مكارم الأخلاق .

وفى كتاب الاحياء فى القسم الخاص بالفضائل عد الامام الغزالى «الاحسان» من فضيلة العفو فقال : « فضيلة العفو والاحسان » . وهناك تكلم على هذه الفضيلة كلاما عذبا جميلا فليطلبه هناك من يريد مزيدا من البيان .

وقد نرى من الناس من يجعل فضيلة الاحسان أكثر من العفو ، وأبعد مطلبا ، وأبعد غورا : كما ورد من ان « المأمون » بن « هرون الرشيد » رحمه الله غضب يوما على غلام له وهم فيه بأشد عقوبة ، فقال الغلام فى ذلة وضراعة ويأس : يا أمير المؤمنين « والكاظمين الغيظ » فقال : كظمت غيظى .. فقال : « والعافين عن الناس » فقال : قد عفوت عنك . فقال : «والله يحب المحسنين» فقال له : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى . وبهذا نعرف أنه جعل الاحسان فوق العفو لأنه زاد المثوبة فى مكان العقوبة . وهذا غاية الاحسان . وبعض الروايات تنسب هذه الواقعة الى « جعفر الصادق » رضى الله عنه .

وفضيلة الاحسان تنشأ عن الرفق والحلم وكمال العقل وقوة الأعصاب وثقة المرء بنفسه التى تتعالى عن الصغائر ولا تبالى بالمثيرات أكثر مما ينبغى .. ولها مظاهر كثيرة تتجلى فيها : فمنها بر الوالدين وبذل الوسع فى ارضائهما بما لا يخالف قواعد الشرع والدين والأدب . وقد جاء فى القرآن الكريم « وبالوالدين احسانا » ومنها بر ذوى القربى ومحاسنتهم ومعاونتهم عند الحاجات وحين نزول الشدائد .. ومنها الرأفة بالمساكين والفقراء والعطف عليهم بما لا يورثهم مفسدة أو يساعدهم على شر . لذا يقول سبحانه « وبذى القربى واليتامى والمساكين .. ومنها العفو عن زلات أصحاب المروءات . واقالة عثراتهم والاسراع الى نجدتهم عندما تحل بهم نكبات الزمان ، ودون أن يكلفوا فى ذلك ، ذل السؤال وبذل ماء الوجه .

ومن أبدع ما يؤثر فى ذلك ان « نصيبا » الشاعر أصابته ، يوما ، خلة (فقر وسوء حال) فلم يشعر أحد بحاله حتى دخل على « عمر بن عثمان ابن عفان) رضى الله عنه ، فنظر عمر اليه فعرف من قذارة قميصه تحت ثيابه مقدار ما يعانى من جهد وبؤس ، فأسرع الى مده بما يصلح حاله ، فأنطقه الاحسان بأبياته الخالدة :

سأشكر عمرا ما تراخت منيتى ... أيادى لم تمنن وان هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانه ... فكانت قذى عينيه حتى تجلت

ويجب أن لا ننسى ان من أعظم مظاهر الاحسان فى عصرنا هذا انشاء دور البر وملاجىء اليتامى ومبرات العجزة وذوى الحاجات ، وفتح المستشفيات ومعاهد العلم ودور الصناعات لكى ينتفع بها المحتاجون ويسعد بها المحرومون .. وما كثر هذا النوع من الاحسان فى وطن الا صار فيه بشير خير وفلاح وتقدم وسعادة .

والاحسان على العموم من خير ما تراض به الطباع القاسية ، وتهذب به النفوس الجامحة وتغسل به الاحن واحقاد القلوب ، وتملك به نفوس ما كان الى امتلاكها من سبيل .

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الانسان احسان

ولقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيد المحسنين وامامهم وحامل لوائهم وقائدهم الأول وفارسهم المعلم . عرف بذلك فى حياته الكريمة المباركة

وكان به أعرف يوم دخل « مكة » فاتحا فيما يقرب من عشرة آلاف بطل من جنوده المؤمنين فأصبح فى قبضته أعناق أعدائه الألداء الذين آذوه ثلاثة عشر عاما وأخرجوه وقاتلوه ، فلم يكن منه الا أن من عليهم وعفا عفو القادرين وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . بل لقد أعطى رأس أعدائه وقائدهم الأعلى « أبا سفيان بن حرب » مكرمة خلدها التاريخ اذ جعل داره حرما آمنا من دخلها أمن على نفسه وماله ، وناهيك به من تشريف وتكريم ، فأصبح هذا الطاغية عونا على نشر مبادىء الاسلام وتبدل ظلال قلبه المعتم ضياء وهاجا من الحب والايمان .

وعلى هذا الهدى المحمدى الأسمى فى الاحسان سار أصحابه رضوان الله عليهم فما كانوا يفتحون بلدا أو قطرا الا واحسانهم يسبقهم اليه قبل أن تدركه سيوفهم ورماحهم فتفتح لهم الحصون المغلقة وتتهاوى لهم القلاع الشامخة وتسعد بحكمهم البلاد والعباد .

ولعل ما بقى علينا فى هذه الكلمة المحدودة ان ننبه على ان الاحسان بذر من أكرم البذور لا بد أن تتخير له أرضه وتهتطاب له منابته ، اذ ليس كل أديم ينبت البذر ، ولا كل أرض تصلح للبناء عليها .

فالحر الكريم يأسره الاحسان ويسترقه والوغد اللئيم يبطره الاحسان ويطغيه . وما أحسن قول المتنبى :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول زهير بن أبى سلمى :

ومن يفعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم

ولبعض الناس ممن رقت طباعهم وتجردت من الأنانية وبلغت غاية التسامح مذهب آخر فى الاحسان اذ يقول أحدهم :

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه ما خاب قط جميل أينما زرعا

ويقول آخر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

والى هنا نكتفى بهذه الكلمة الخفيفة مراعاة للزمان والمكان . والله نسأل ان ينفعنا بما نعلم وبما نعلم ، وبما نتعلم انه سميع الدعاء .

أبو بكر ذكرى
أستاذ الأخلاق فى كلية أصول الدين